القارئ والنص: ديناميات التأويل في فضاء التفاعل الأدبي

The Reader and the Text : Dynamics of Interpretation in the Space of Literary Interactionold

حليمة بولحية*
Halima boulahia
جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل (الجزائر)
Mohamed Seddik Ben Yahia University of Jijel (Algeria)
Hallima88@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/03/15	تاريخ القبول: 2025/04/12	تاريخ النشر: 2025/06/02

مُلخّص البحث

يتناول البحث التحولات النقدية التي شهدتها الدراسات الأدبية، لا سيما فيما يتعلق بدور القارئ في إنتاج المعنى، وذلك من خلال دراسة كتاب القارئ في النص: مقالات في الجمهور والتأويل.

لم يعد النص يُنظر إليه ككيان مغلق يحمل دلالة ثابتة، بل أصبح فضاءً تأويليًا ديناميكيًا تتحدد معانيه من خلال تفاعل القارئ معه. وعليه، تتمحور إشكالية البحث حول العلاقة الجدلية بين سلطة النص وحرية القارئ: فكيف يساهم القارئ في بناء المعنى؟ وما العوامل التي تؤثر في عملية تأويله، وفي تأويله؟ وإلى أي مدى يمكن أن تكون حرية التأويل مقيدة دون السقوط في فوضى دلالية؟

يركز البحث على مفهوم مركزية القارئ ضمن نظريات التلقي والتأويل، حيث يناقش كيفية تفاعل القارئ مع النص وفقًا لمقاربات نقدية مختلفة، مثل التأويلية، التفكيكية، ونظرية أفق التوقعات. وتوصلت الدراسة إلى أن التفاعل التأويلي بين القارئ والنص ليس مطلقًا، بل تحكمه عوامل لغوية، ثقافية، وتاريخية، تحدد نطاق التأويل المشروع وتمنع الفوضى الدلالية، مما يحقق التوازن بين تعدد القراءات والحفاظ على هوية النص.

الكلمات المفتاحية: قارئ، نص، ديناميكيات، تأويل، تفاعل.

This study examines the role of the reader in constructing meaning, focusing on The Reader in the Text : Essays on Audience and Interpretation. Moving beyond traditional author-centered approaches, the research highlights the reader's active participation in interpretation. It explore the dialectical relationship between textual authority and reader freedom, addressing key questions : How does the reader shape

* حليمة بولحية: Hallima88@hotmail.com

meaning? What influences interpretation? And to what extent can multiple readings coexist without losing textual identity?

By analyzing reception theory, hermeneutics, and the horizon of expectations, the study argues that interpretation is dynamic yet bounded by linguistic, cultural, and historical factors. This ensures a balance between diverse readings and textual coherence, preventing unlimited relativism in interpretation.

Keywords: Reader, Text, Dynamics, Interpretation, Interaction.

مقدمة:

يشكل كتاب "القارئ في النص: مقالات في الجمهور والتأويل لسوزان روبين سليمان وإنجي كروسمان"[1] نقطة تحول في الفكر النقدي الحديث، حيث أسهم في إعادة النظر في العلاقة الجدلية بين القارئ والنص، مسلطا الضوء على الدور الفاعل للمتلقي في إنتاج المعنى. فلم يعد النص كيانًا مغلقًا ذا دلالة ثابتة، بل أصبح فضاءً ديناميكيًا تتحدد معانيه من خلال التفاعل المستمر بين بنيته الداخلية وتأويل القارئ له، وقد جاء هذا التحول انعكاسًا جوهريًا لنظريات التلقي والتأويل التي ازدهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، متأثرة بالتحولات الفكرية في النقد الأدبي الأمريكي والأوروبي، مثل التأويلية الحديثة، والتفكيكية، والسيميائية.

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية لمقالات "القارئ في النص"، من خلال تحليل التفاعل بين القارئ والنص، واستكشاف دور القارئ في بناء المعنى، إضافة إلى إشكاليات التلقي والتأويل في سياقات مختلفة. كما سيسلط الضوء على الأسئلة المحورية التي يثيرها الكتاب: كيف يشارك القارئ في تشكيل دلالات النص؟ ما العوامل التي تؤثر على عملية التلقي والتأويل؟ إلى أي مدى يظل المعنى ثابتًا أو منفتحا على قراءات متعددة؟ Bas du formulaire

لا تقتصر أهمية هذا الكتاب على كونه دراسة نقدية حول التفاعل بين القارئ والنص، بل تتجلى قيمته في تطوير نظريات التلقي والتأويل، مما يفتح آفاقا جديدة تمتد إلى مجالات الفلسفة وعلم النفس والإعلام.

توضح محررتا الكتاب هدفهما من جمع هذه المقالات قائلتين: «فحص –بأوسع منظور ممكن- المضامين النظرية والعملية لمفهوم القارئ وبصورة أعم الجمهور في النصوص الأدبية، وفي الأشكال الفنية الأخرى التي يمكن أن تعد نصوصاً. (...) يرمي هذا المجلد أساساً إلى سبر أغوار التساؤلات الأساسية التي تدور حول منزلة السيميائية، والاجتماعية، والتأويلية-الجمهور فيما يتعلق بالنص الفني. (...) وبناءً على ذلك، التمستا مقالات من مجموعة من الباحثين من مشارب بحثية متنوعة، فبعض هؤلاء الباحثين له كتابات متمرسة في هذا الموضوع، وبعضهم الآخر كان قد قاربه للمرة الأولى. واقتران مقالاتهم. المتباينة من حيث مجالها، ومنهجها، ولكن توحدها بؤرة مشتركة تتركز في "الغاية من تلقي" النصوص الفنية. هو نفسه بينة بليغة على غنى وجدة النقد الموجه للجمهور. كانت المقالات كلها قد كتبت خصيصاً لهذا الكتاب باستثناء مقالة تزفيتان تودوروف»[2].

أولا: القارئ في النقد الأدبي، من التلقي السلبي إلى المشاركة الفاعلة:

1- تحولات مفهوم القارئ عبر التاريخ:

شهد الخطاب النقدي تحولات جذرية في تصوره لمفهوم القارئ، إذ انتقل من كونه متلقيًا سلبيًا للمعنى الذي ينتجه النص إلى شريك فاعل في تشكيله وإعادة إنتاجه. هذا التحول لم يكن وليد لحظة عابرة، بل هو نتاج تطورات فكرية ونقدية عميقة في الدراسات الأدبية، تجلت بوضوح في النظريات النقدية الحديثة، لا سيما في نظريات التلقي والتأويل، التي عززت الاهتمام بدور القارئ في فهم النصوص وإنتاج دلالاتها.

مرّ مفهوم القارئ في النقد الأدبي بتحولات متعدّدة تعكس تطوّر الفهم لدوره في تشكيل المعنى، يمكن تتبّع هذه التحولات من خلال المراحل التالية:

أ- العصور الكلاسيكية: سلطة المؤلف والمعنى الثابت: اعتبر الفلاسفة القدماء، لا سيما أفلاطون وأرسطو، النص الأدبي كيانًا مغلقًا يحمل معنى ثابتًا وموضوعيًا يستمده من نية المؤلف، فحصروا دور القارئ في التلقي السلبي دون مشاركة فعالة في التأويل أو بناء المعنى. وقد أسهمت العصور الوسطى في تكريس هذه الرؤية، حيث هيمنت القراءة الدينية والفلسفية التي تعاملت مع النصوص كمصادر للحقيقة المطلقة، وفرضت قواعد تفسيرية صارمة حالت دون تعدد الفهم أو فسح المجال للاجتهاد الفردي.

ب-النقد البنيوي: استقلالية النص ومعناه المغلق: ظهرت البنيوية في ستينيات القرن العشرين مركّزةً على النص بوصفه نظامًا متكاملًا يمتلك بنيته الداخلية المستقلة التي تُنتج المعنى بمعزل عن نوايا المؤلف أو تأويلات القارئ. وأكد هذا المنظور مفكرون بارزون مثل رولان بارت، وكلود ليفي-شتراوس، وتزفيتان تودوروف، حين ربطوا المعنى بالعلاقات البنيوية الكامنة بين عناصر النص ذاته، لا بتفاعل القارئ معه. لذا أصبح القارئ مجرد محلل للأنساق اللغوية والرمزية للنص، دون أن يكون له دور في تشكيل معناه، فالبنيوية ادخلت القارئ في «سجن اللغة، يقول بما تقول ولا يملك ان يضيف شيئا من عنده»[3]

ت-ما بعد البنيوية: انفتاح النص ودور القارئ: بدأ هذا التصور يتغير مع ظهور ما بعد البنيوية في أواخر الستينيات، حيث شككت هذه النظريات في استقلالية النص وأكدت أن المعنى ليس مغلقًا أو ثابتًا، بل يتحدد من خلال علاقة القارئ بالنص. في هذا السياق، أعلن "رولان بارت" أن المعنى لا ينبع من سلطة المؤلف، بل يتشكل من خلال القراءة، مما يجعل القارئ عنصرًا أساسيًا في العملية التأويلية.

ث- نظرية التلقي: التفاعل الديناميكي بين القارئ والنص: ظهرت نظرية التلقي في سبعينيات القرن العشرين والتي طورها مفكرون مثل "هانز روبرت ياوس، وولفغانغ إيزر، وستانلي فيش"، لتعزز هذا التوجه، مؤكدة أن المعنى لا يوجد مسبقًا داخل النص، بل يتشكل من خلال التفاعل الديناميكي بين القارئ والنص.

ووفقًا لهذه النظرية، لا يُنظر إلى القارئ كمستقبل سلبي للنص، بل كشريك في تشكيل معناه عبر تفاعله الديناميكي معه، متأثرًا بسياقه الثقافي والمعرفي.

إن هذا التحول في موقع القارئ لم يكن مجرد تغيير في الأولويات النقدية، بل انعكاسا لتحولات أعمق في الفهم النقدي للأدب ووظيفته. فبعد أن كان التركيز في النقد التقليدي منصبًا على المؤلف، انتقل إلى النص مع البنيوية، ثم أصبح القارئ اليوم هو محور العملية التأويلية، باعتباره شريكًا في إنتاج الدلالة وليس مجرد متلقٍ لها.

2-النص المفتوح واشكالية التأويل: يُعد مفهوم التأويلية من أبرز الإشكاليات التي شغلت الفلسفة الغربية والنقد الأدبي الحديث، إذ يتناول طبيعة العلاقة بين النص والقارئ، وإمكانية الوصول إلى معنى ثابت أو متغير للنصوص. ويمكن تقسيم التأويلية إلى اتجاهين رئيسيين:[4] -سنوضحها لاحقا-

***التأويلية الإيجابية:** يمثل هذا الاتجاه مفكرون بارزون مثل "فيليب هامون، بول ريكور، شلايرماخر، ودلتاي"، الذين يدافعون عن التأويل بوصفه أداة لفهم النصوص وليس وسيلة لتشتيت المعنى.

***التأويلية السلبية:** ترى أن المعنى ليس ثابتًا، وأن التأويل عملية لا نهائية، يمثل هذا الاتجاه "نيتشه، هايدجر، وجادامر".

وفقًا "لسوزان روبين سليمان"، فإن النقاش بين التأويلية الإيجابية والتأويلية السلبية ليس مجرد خلاف أكاديمي حول المعنى، بل يحمل أبعادًا فلسفية ومعرفية تتعلق بمسائل مثل السلطة، وإنتاج المعرفة، والمكانة الأنطولوجية للفهم والوجود. وهو نقاش ما زال مستمرًا إلى اليوم، حيث تتشابك فيه قضايا متعددة تتجاوز مجرد فهم النصوص إلى مسائل أعمق تتعلق بالتحكم في إنتاج الحقيقة والمعرفة.

مع تطور الدراسات النقدية، شهدت العلاقة بين المؤلف والنص والقارئ تحولات جذرية، كان من أبرزها ظهور مفهوم "موت المؤلف" "لرولان بارت"، و"النص المفتوح" "لأمبرتو إيكو":

***موت المؤلف: رولان بارت:** يرى "بارت" أن سلطة التأويل انتقلت من المؤلف إلى القارئ، فلم يعد النص مرتبطًا بنية كاتبه، بل أصبح معناه يتشكل من خلال القراءة. وبهذا، يصبح القارئ فاعلًا بالكامل في صنع المعنى، مما يسمح بتعدد التأويلات الممكنة للنص الواحد «فدلالة النص ترتبط بتقدير القارئ لعلاقة النص برؤيته للعالم، وبفرضياته النظرية، واهتماماته الفردية، وتجربته الذاتية»[5] وهذا يتعارض مع رؤية "إيزر"، الذي يرى أن القارئ ليس صانعًا مطلقًا للمعنى، بل متفاعلًا مع النص ضمن حدود معينة.

***النص المفتوح: أمبرتو إيكو:** استلهم "إيكو" فكرة "موت المؤلف" لكنه قدّم تصورًا أكثر انضباطًا للتأويل، حيث يرى أن بعض النصوص الأدبية تمتلك بنية مفتوحة بطبيعتها، مما يسمح بتعدد القراءات دون فقدان هوية النص الأصلية. لكنها مع ذلك تحتوي على إشارات داخلية تفرض حدودًا على القراءات الممكنة « إن كل أثر تقليدي، وإن كان مكتملاً ماديا، يشترط من مؤوّله جوابا شخصيا وإبداعيا، فهو لا يستطيع فهمه دون أن يعيد اكتشافه بالتعاون مع المؤلّف»[6]، وهذا ما يميز مقاربة "إيكو" عن "بارت"، إذ إنه يرفض الفوضى التأويلية ويضع فاصلًا واضحًا بين "التأويل المشروع" القائم على معطيات النص و"التأويل المفرط" الذي يتجاهل بنيته وسياقه، حيث يرى أن الاستخدام العشوائي للنص قد يؤدي إلى تأويلات خاطئة لا تستند إلى أي دلائل نصية.

فمثلا إذا فُسرت "الملك لير" على أنها قصة خرافية للأطفال، فهذا يتجاهل البنية التراجيدية للنص. وإذا قُرئت ""1984 على أنها رواية رومانسية فقط، فهذا يُهمل مضمونها السياسي والديستوبي الأساسي.

إذن، القارئ ليس مقيّدًا بتفسير واحد، لكنه أيضًا لا يستطيع فرض تأويلات لا تستند إلى بنية النص.

رغم هذا التوجه نحو تعددية المعاني، يطرح النقاد سؤالًا جوهريًا: إذا كان لكل قارئ تأويله الخاص، فهل يفقد النص معناه الأصلي؟ وهل يمكن اعتبار أي تأويل صحيحًا، بغض النظر عن انسجامه مع بنيات النص؟ هنا تتجلى إشكالية النسبية المطلقة في التأويل، حيث يحذر بعض المفكرين من أن فتح المجال أمام التأويلات اللامحدودة قد يؤدي إلى تفكيك النص تمامًا، بحيث يصبح لكل قارئ "نصه الخاص"، مما يُفقد العمل الأدبي هويته الأصلية.

يُظهر تطور التأويل في النقد الأدبي أن العلاقة بين النص والقارئ ليست ثابتة، بل ديناميكية ومتغيرة. وقد ساهمت نظريات التلقي في تحرير القارئ من هيمنة المؤلف، لكنها أكدت أيضًا على أن التأويل لا يمكن أن يكون بلا ضوابط، وإلا وقعنا في فوضى تأويلية لا تُبقي للنص أي هوية واضحة.

ومن هنا، تكمن المعضلة الأساسية للنقد المعاصر تكمن في كيفية الموازنة بين حرية التأويل واحترام النص ككيان لغوي وثقافي يحمل دلالاته الخاصة.

3- التوازن بين سلطة النص وحرية القارئ: شهد النقد الأدبي تطورًا ملحوظًا في فهم العلاقة بين النص والقارئ، إذ أصبح التأويل عملية مفتوحة على قراءات متعددة. إلا أن هذه الحرية التأويلية أصبحت في حد ذاتها إشكالية تتعلق بدور القارئ في التأويل، إذ يرى بعض النقاد أن إطلاق العنان لتعدد التأويلات قد يؤدي إلى نسبية مفرطة تجعل لكل قارئ نصًا خاصًا به، مما يُفقد النص الأدبي هويته الأصلية .وهذا يطرح تساؤلًا جوهريًا :إلى أي مدى يمكن للقارئ أن يكون حرًا في تأويل النص دون أن يفقد معناه الأصلي؟ وكيف يمكن الحفاظ على هوية النص رغم اختلاف القراءات؟

رغم أن النقد الحديث يعترف بتعدد التأويلات، إلا أن هناك آليات تمنع النص من الانزلاق إلى فوضى المعنى وتحافظ على هويته، وأهمها:

* **البنية الداخلية للنص:** تحتوي النصوص على إشارات لغوية وبنيوية تحدد نطاق التأويل المشروع، بحيث لا تكون مفتوحة على قراءات غير منطقية. فمثلًا، لا يمكن قراءة "الملك لير" على أنها قصة خرافية للأطفال، لأن بنيتها التراجيدية لا تسمح بذلك. ولا يمكن تأويل رواية تاريخية على أنها خيال علمي، لأن بنيتها لا تدعم هذا النوع من التأويل.

* **السياق الثقافي والتاريخي:** لا تُكتب النصوص في فراغ، بل تنشأ ضمن إطار زمني وثقافي محدد يؤثر في دلالاتها ومعانيها المتوقعة، ولهذا، فإن قراءة نصوص قديمة من منظور معاصر دون مراعاة سياقها قد يؤدي إلى تأويلات مفرطة لا تتوافق مع معانيها الأصلية. فمثلًا، تفسير "هاملت" بوصفها نصًا سياسيًا عن بريطانيا الحديثة قد يكون إسقاطًا بعيدًا عن سياقها الأصلي.

* **التفاعل بين النص والقارئ:** لا يوجد المعنى داخل النص وحده، ولا في ذهن القارئ فقط، بل يتشكل من خلال التفاعل بينهما. فلا يمكن للنص أن يفرض معنى واحدًا مغلقًا، كما لا يملك القارئ حرية مطلقة في قراءته.

* **النقد الأكاديمي باعتبارها أداة للتحقق:** يساهم النقد الأدبي في توجيه التأويلات المقبولة، بحيث يمنع الفهم العشوائي للنصوص، عبر استخدام مناهج تحليلية تستند إلى معايير واضحة لضبط التأويلات وضمان انسجامها مع النص.

يمتلك القارئ حرية التأويل، ولكن هذه الحرية لا بد أن تكون محكومة بإشارات النص اللغوية والسياقية؛ فالتأويل ليس عملية عشوائية، بل هو تفاعل منضبط بين النص والقارئ، يستند إلى معايير لغوية وثقافية ونقدية.

إذن، يتحقق التوازن عبر احترام بنية النص، ومراعاة سياقه الثقافي، والاحتكام إلى قواعد النقد الأكاديمي. فالقارئ يُثري النص بتأويله، لكن دون أن يُسقط عليه دلالات لا يدعمها أي أساس موضوعي.

4-القارئ والتفاعل التأويلي: لم يعد القارئ في النقد الأدبي الحديث مجرد متلقٍ سلبي للمعنى، بل بات جزءًا أساسيًا من عملية إنتاج الدلالة وتأويل النص .ومع ذلك، فإن طريقة فهم هذا الدور تختلف من مقاربة نقدية إلى أخرى، حيث يرى كل تيار نقدي أن القارئ ينبغي أن يتفاعل مع النص بطريقة معينة وفقًا لمنهجيته.

ومن هنا، فإن العلاقة بين العمل الأدبي والجمهور ليست مسألة بسيطة، بل تشمل مناهج وتفسيرات متعددة تحاول تحديد طبيعة هذا التفاعل.

تؤكد بعض المقاربات النقدية على دور القارئ في تشكيل المعنى من خلال تأويله الشخصي، بينما تركّز أخرى على الحدود التي يفرضها النص ذاته في عملية التأويل. على سبيل المثال، هناك نظريات تهتم بالإجابة عن سؤال "من يقرأ ماذا؟"، أي أنها تركز على أنماط القراءة المختلفة وتأثير الخلفيات الثقافية والاجتماعية على تأويل النصوص، بينما تسلط مقاربات أخرى الضوء على كيفية تغير الأشكال الأدبية بفعل التحولات الاجتماعية والتاريخية، مما يؤثر على طبيعة القراءة والتفاعل مع النصوص عبر الزمن.

في هذا السياق، طرحت سوزان روبين سليمان مفهوم "التفاعل التأويلي"، مؤكدةً أن القراءة ليست مجرد عملية استخراج لمعنى جاهز داخل النص، بل هي إعادة بناء للمعنى وفقًا لتجربة القارئ. إذ يضفي كل قارئ على النص دلالات جديدة من خلال تأويله الخاص، مما يعني أن المعنى ليس ثابتًا مسبقًا، بل يتشكل من خلال القراءة ذاتها.

يتفق "جوناثان كلر" مع هذا الطرح، لكنه يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يرى أن النص لا يمكن أن يوجد دون قارئ، لأن دلالته تتحدد فقط عند قراءته وتأويله. وبهذا المعنى، يصبح القارئ ليس مجرد متلقٍ، بل منتجًا أساسيًا للمعنى، مما يجعل النص فضاءً تأويليًا مفتوحًا على قراءات لا نهائية. ومن هنا، يؤكد "كلر" أن القراءة ليست عملية استهلاكية، بل إبداعية، حيث يعيد القارئ إنتاج النص في كل مرة يقرؤه، ما يجعل كل قراءة بمثابة إعادة خلق للنص ذاته.

بناءً على ذلك، يمكن التمييز بين عدة مداخل نقدية كبرى تحلل تفاعل القارئ مع النص، ومن أبرزها:

أ-التأويلية: القراءة حوار بين القارئ والنص: ترى التأويلية أن القراءة ليست عملية استخراجٍ لمعنى جاهز داخل النص، بل تفاعلٌ تأويليٌ مفتوحٌ بين القارئ والنص، إذ يُعاد بناء المعنى في كل قراءة جديدة وفقًا لخلفية القارئ وسياقه الثقافي والمعرفي. حيث يرفض التأويليون فكرة أن النص يمتلك معنًى أصيلًا وثابتًا، بل يؤكدون أن المعنى يتغير مع كل قراءة، مما يجعل الفهم عملية ديناميكية ومتعددة المستويات.

يُميز الباحثون بين اتجاهين رئيسيين للتأويل:[7]

* **التأويل التقليدي:** يُعد "شلايرماخر ودلتاي" من أبرز رواد هذا الاتجاه، حيث يُنظر إلى النص بوصفه حاملًا لمعنى أصيل يمكن الوصول إليه من خلال التحليل الموضوعي والسعي إلى فهم نية المؤلف «التأويلية تطالب بالكشف بتقنيات خاصة عن المعنى الأصلي»[8]. لذا تسعى هذه المقاربة إلى الوصول إلى "فهم الفهم"، أي إدراك ما أراد الكاتب قوله من خلال عمله. ولهذا، يرتكز التحليل في هذا الاتجاه على دراسة بنية النص، ومعرفة سياقه التاريخي، وتحليل معانيه وفقًا لقصد المؤلف الأصلي، مما يعني أن دور القارئ يقتصر على محاولة إعادة بناء الفهم الأصلي للنص دون التأثير عليه. تعتمد هذه التأويلية على تحليل النص بشكل موضوعي، وتسعى إلى تحريره من التأثيرات الذاتية أو الرومانسية للقارئ.

* **التأويل الحديث:** ازدهر مع فلاسفة مثل "هايدغر وغادامير وريكور"، حيث يرفض فكرة وجود معنى أصيل وثابت، مؤكدًا أن المعنى يتشكل باستمرار من خلال التفاعل بين القارئ والنص. وفقًا لهذه الرؤية، لا يحمل النص معنًى واحدًا، بل يكتسب دلالات متعددة بتعدد القرّاء والسياقات التي يُقرأ فيها. من هذا المنظور، فإن النص لا يُقرأ في عزلة، بل يُفهم من خلال الحوار بين القارئ ومعطياته الثقافية والفكرية وبالتالي يصبح القارئ جزءًا أساسيًا في عملية التأويل، ويمنح حرية أكبر فيُضفي على النص دلالات جديدة بناءً على تجربته الشخصية وأفق توقعاته.

مثال: إذا قرأ شخصان نفس الرواية، أحدهما مؤرخ والآخر عالم نفس، فالأول قد يركز على السياق التاريخي للأحداث، بينما الثاني قد يحلل شخصيات الرواية نفسيًا. هنا يولد النص دلالتين مختلفتين بناءً على تفاعل كل قارئ معه، مما يعكس أن الفهم ليس ثابتًا بل يتغير بتغير الزاوية التي يُقرأ منها النص.

رغم أن التأويلية تمنح القارئ حرية في الفهم، فإن ذلك لا يعني أن التأويل عملية عشوائية بالكامل. لذا يسعى بعض الباحثين إلى تأسيس مفهوم "التأويل المشروع"، وهو تأويل يستند إلى أسس علمية ومنهجية، بحيث يكون مرتبطًا بسياق النص ومعطياته، وليس مجرد إسقاط ذاتي للقارئ عليه .وبهذا، فإن القارئ يُعيد إنتاج المعنى، ولكن في إطار يضمن اتساق الفهم وعدم الانزلاق إلى فوضى تأويلية غير مبررة.

كيف يقرأ القارئ النص من منظور التأويلية؟ ترى التأويلية أن قراءة النص ليست عملية استخراج للمعنى الثابت، بل فعل تأويلي متجدد يعتمد على القارئ وسياقه.

* **غادامير[9]:** يرى أن الفهم ليس مجرد استرجاع مباشر للمعنى، بل هو تأويل يتشكل من خلال التفاعل بين القارئ والنص. فكل قارئ يواجه النص وفي ذهنه خبراته السابقة وأفق توقعاته، لذا لا يوجد معنى أصيل ونهائي، بل كل قراءة هي تأويل جديد يولد دلالة مختلفة.

* **بول ريكور:** يؤكد على أن التأويل ليس مجرد فعل فكّ شيفرات النص، بل هو تجربة فلسفية عميقة، حيث تنشأ المعاني من خلال التفاعل بين الذات القارئة والنص المقروء. كل قراءة تُعيد تشكيل دلالات النص، مما يجعله متجددًا وغير نهائي، ويجعل عملية الفهم دائرية وغير مكتملة أبدًا. هذا يعني أن كل قراءة جديدة تضيف طبقة جديدة من التأويل، دون أن تُلغي الطبقات السابقة، مما يجعل النص فضاءً تأويليًا مفتوحًا على قراءات لا نهائية، دون أن يكون هناك معنى مطلق ونهائي.

بذلك، تُعد التأويلية أداة نقدية فعالة، ساهمت في تطوير فهمنا للنصوص، حيث لم يعد النص مجرد كيان مغلق يحمل معنى واحدًا، بل أصبح كيانًا متجددًا يظل مفتوحًا على قراءات غير منتهية؛ فكل قراءة جديدة تضيف بُعدًا تأويليًا جديدًا دون أن تمحو ما قبلها، مما يجعل النص فضاءً متجددًا للدلالات. وبينما تمنح التأويلية القارئ حرية كبيرة في تشكيل المعنى، فإنها لا تلغي تمامًا القيود التي يفرضها النص، على عكس التفكيكية التي ترفض أي مركز ثابت للمعنى.

ب- النقد النفسي واستجابة القارئ: القراءة إسقاط للعالم الداخلي: يرى النقد النفسي أن القراءة ليست مجرد عملية إدراكية أو تحليلية، بل هي أيضًا فعل عاطفي يعكس البنية النفسية للقارئ. إذ يدخل كل قارئ يدخل إلى النص محملًا بتجاربه الشخصية، مشاعره، ورغباته الدفينة، مما يجعل عملية التأويل ذاتية وفريدة لكل فرد.

يحلل "نورمان هولاند" كيف يعيد القراء «خلق النصوص طبقا لشخصياتهم الخاصة، فاحتفظ... لاستجابة القارئ بالمكونات الفرويدية للدفاع، والتحويل، والوهم، وأضاف مكونا جديدا هو مكون التوقع»[10]. وبهذا، لم يعد تفسير النص مقتصرًا على بنيته اللغوية أو سياقه التاريخي، بل أصبح يشمل أيضًا البُعد النفسي للقارئ.

كيف يقرأ القارئ النص وفقًا للمقاربة النفسية؟

- **التأويل إسقاط نفسي:** يرى "هولاند" أن القارئ يُسقط لا شعوريا تجاربه وعواطفه على النص، فيقرأه من خلال عدسته النفسية الخاصة، مما يؤدي إلى تأويلات متعددة مرتبطة بالذات القارئة أكثر من النص نفسه.
- **التجربة القرائية متغيرة:** بما أن نفسية القارئ تتغير بمرور الوقت، فإن قراءته لنفس النص قد تختلف وفقًا لحالته العاطفية والمراحل التي يمر بها في حياته.
- **التفاعل العاطفي مع الشخصيات:** غالبًا ما يجد القارئ نفسه متورطًا نفسيًا في أحداث الرواية، فيتقمص مشاعر الشخصيات أو يعكس صراعاته الداخلية من خلالها.

فمثلا، قد يتناول القارئ علاقة "هيثكليف وكاثرين" في رواية "مرتفعات ويذرنج لإيميلي برونتي" من منظور نفسي، حيث يُسقط مشاعره وخبراته العاطفية على هذه العلاقة المعقدة، فالبعض قد يراها قصة حب مأساوية تعكس التوق العاطفي، بينما قد يفسرها آخرون على أنها علاقة مرضية قائمة على التملك والتدمير الذاتي، وذلك بناءً على رؤيتهم النفسية الخاصة للعواطف والارتباطات البشرية.

اذن، يُضيف النقد النفسي بُعدًا ذاتيًا إلى عملية التلقي، حيث لم يعد القارئ مجرد مستهلك للمعنى، بل أصبح مشاركًا في إنتاجه وفقًا لعالمه الداخلي. وبهذا، تؤكد هذه المقاربة أن كل قراءة هي انعكاس لحالة القارئ النفسية، مما يجعل النص فضاءً مفتوحًا لتأويلات لا نهائية، تتغير بتغير القرّاء وأوضاعهم النفسية.

ت-التفكيكية: القراءة فعل لا نهائي لإنتاج المعنى: تُعد التفكيكية من أبرز المقاربات النقدية التي أعادت النظر في العلاقة بين القارئ والنص، أسسها الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا"، الذي طرح رؤية تزعزع فكرة المعنى الثابت والمغلق للنصوص، مؤكدا أنه لا يوجد تأويل نهائي أو ثابت لأي نص، بل تتغير معانيه مع كل قراءة جديدة، «إن كل قراءة للنص هي بمثابة تفسير جديد له، واستحالة الوصول الى معنى نهائي وكامل لأي نص، والتحرر من اعتبار النص كائنا ومغلقا ومستقلا بعالمه»[11]، مما يجعل القارئ عنصرًا أساسيًا في إعادة بناء المعنى.

تقوم التفكيكية على مجموعة من المبادئ الجوهرية التي تعيد صياغة العلاقة بين القارئ والنص:

* **غياب المركز الثابت للمعنى:** يرى "دريدا" أن النص لا يحمل معنى جوهريًا ثابتًا، بل يتغير وفقًا لسياقات القراءة المختلفة، مما يؤدي إلى إنتاج تأويلات متعددة قد تكون متناقضة أحيانًا.

* **التأجيل والاختلاف:** يطرح أيضا مفهوم Différance الذي يجمع بين معنى "الاختلاف" و"التأجيل"، مما يعني أن المعنى لا يُحدد بشكل مباشر، بل يتأخر ويتغير باستمرار تبعا لتفاعل القارئ مع النص.

***كشف التناقضات الداخلية للنص:** لا تعترف التفكيكية بوجود "معنى أصلي" يمكن الوصول إليه، بل تؤكد على أن كل نص يحمل تناقضاته الداخلية التي يمكن كشفها من خلال القراءة المتعددة.

كيف يقرأ القارئ النص من منظور التفكيكية؟ وفقًا لدريدا، لا يمكن للقارئ الاكتفاء بمحاولة "فهم" النص ككيان مغلق، بل عليه أن يتفاعل معه تحليلًا ونقدًا، متجاوزًا سطح المعنى الظاهري. ويتحقق ذلك عبر:

***تفكيك البنية النصية:** بدلاً من البحث عن المعنى الحقيقي للنص، يسعى القارئ إلى تفكيك بنيته من خلال تحليل التناقضات والتشكيك في الثنائيات التقليدية (مثل: الخير/الشر، الحضور/الغياب، المركز/الهامش).

***إعادة إنتاج الدلالة:** كل قراءة جديدة تعيد تشكيل المعنى، مما يعني أن القارئ لا يكتشف فقط تأويلًا جديدًا، بل يخلق تأويله الخاص.

***التشكيك في سلطة المؤلف:** يتجاوز القارئ نوايا الكاتب، حيث لم يعد المعنى مرتبطًا بقصدية المؤلف، بل أصبح يُبنى وفقًا لتفاعل القارئ مع النص[12].

اذن، أحدثت التفكيكية ثورة في طريقة فهم القارئ للنصوص، حيث أصبح عنصرًا محوريًا في إنتاج المعنى. فكل قراءة تُعيد بناء النص بطرق غير متوقعة، مما يجعل التأويل عملية مستمرة لا تنتهي أبدًا، إذ «بغض النظر عن ماهية الشيء، فإنه يخضع للتأويل مرارًا وتكرارًا لأغراض جديدة، ويتم الاستيلاء عليه وإعادة تشكيله. فكل الأحداث في العالم المادي تحمل طابع الإلزام والتحكم، وكل ما هو مُلزم ومتحكم ينطوي على تأويل متجدد وتكيف قد يُخفي أو حتى يُطمس بالضرورة أي معنى أو غرض سابق»[13]. وبهذا، أصبحت القراءة وفقًا لـ"دريدا" رحلة بلا نهاية، حيث لا يوجد معنى واحد، بل عوالم دلالية متعددة تنتظر أن يكتشفها القارئ في كل مرة يعيد فيها النظر في النص.

ث-رولان بارت والسيميائية: القراءة فعل تفكيك للعلامات: قدم "بارت" مقاربة تحليلية للنصوص تقوم على تفكيك العلامات والرموز التي تتضمنها. فالنص عنده ليس مجرد وعاء لمعنى ثابت، بل هو نسيج من العلامات يتعدد تأويله بتعدد القرّاء وسياقات القراءة. لذا، يرفض "بارت" فكرة أن النص يمتلك معنًى نهائيًا، ومن هذا المنطلق، يتحول القارئ من مجرد متلقٍ سلبي إلى كاتب ثانٍ يعيد إنتاج المعنى في كل قراءة جديدة.

كيف يقرأ القارئ النص وفقًا لبارت؟ يرى "بارت" أن القراءة ليست مجرد استهلاك لمعنى جاهز، بل هي عملية تفكيك مستمرة لبنية النص السيميائية، حيث يتم تحليل مكوناته اللغوية والثقافية لإعادة تشكيل دلالاته باستمرار. وفقًا لهذا الطرح، تتحدد آليات القراءة عند بارت في الآتي:

***النص شبكة من العلامات** :لا يمتلك النص معنًى أحاديًا، بل هو منظومة من الإشارات القابلة للتفكيك والتأويل، مما يتيح إمكانيات قرائية متعددة.

***التمييز بين "النص القابل للقراءة" و"النص القابل للكتابة":**[14]

- **النص القابل للقراءة:** هو النص ذو البنية المغلقة الذي يمنح القارئ تأويلًا مباشرًا وواضحًا، مما يقلل من احتمالات التعددية التأويلية.

- **النص القابل للكتابة:** وهو النص المفتوح الذي يحفّز القارئ على الإبداع في تأويله، إذ يتيح احتمالات لا نهائية من المعاني، مما يجعل القراءة فعلًا إنتاجيًا لا استهلاكيًا. فهذا النوع من النصوص يتكوّن من شبكة من الدوال دون مدلولات ثابتة، حيث تصبح القراءة فعلًا إبداعيًا لا يقتصر على احترام النص، بل يعمل على تحطيمه ومنعه من التكلّم بمعنى نهائي.

* **تحطيم مركزية المؤلف:** يؤكد "بارت" في مقالته (موت المؤلف) أن النص لا يُقرأ وفقًا لنية الكاتب أو خلفيته، بل يتشكل معناه فقط في لحظة التلقي. أي أن القارئ هو من يمنح النص دلالته الحقيقية، ما يجعل القراءة فعلًا مستقلًا عن سلطة المؤلف «فموت الكاتب هو الثمن الذي تتطلبه ولادة القارئ»[15].

***التفاعل مع الشفرات النصية** :يقسم "بارت" النص إلى خمسة أنظمة دلالية أو شفرات (Codes) تحدد كيفية بناء المعنى داخل النص، وهي: «الشفرة الدلالية، الشفرة الرمزية، الشفرة الثقافية، شفرة الأحداث»[16]. ويرى أن هذه الشفرات تتداخل معًا دون أن تشكل نظامًا نهائيًا، مما يعزز تعدد التأويلات الممكنة للنص، ويدفع القارئ إلى فكها وتفسيرها بدلًا من قبول المعنى الظاهري. لذا، فإن الشفرات ليست مجرد وسيلة لتوجيه القارئ، بل هي أيضًا مصدر لتعدد المعاني داخل النص.

مثال: عند تحليل رواية "مدام بوفاري لغوستاف فلوبير" وفقًا للمنهج السيميائي، فلا تُقرأ الرواية بوصفها مجرد قصة عن خيانة زوجية، بل باعتبارها نسيجًا معقدًا من الرموز الثقافية والاجتماعية التي تعكس تحولات المجتمع البرجوازي الفرنسي. فشخصية "مدام بوفاري" ليست مجرد شخصية روائية، بل تعكس نموذجًا أنثويًا متأثرًا بخطابات الحب الرومانسي السائدة آنذاك، مما يجعل الرواية فضاءً مفتوحًا للتأويلات المتعددة.

اذن، يُحدث "بارت" قطيعة مع التصورات التقليدية للنص، حيث تتحوّل القراءة إلى فعل إنتاجي وليس مجرد استهلاك للمعنى؛ فالنص لا يُقرأ بحثًا عن معنى ثابت، بل باعتباره فضاءً مفتوحًا على تأويلات متعددة، يدعو القارئ إلى استكشاف طبقاته الدلالية، مما يجعل كل قراءة بمثابة "إعادة كتابة" للنص الأصلي. لذا، يرى أن القراءة عملية إبداعية تفاعلية يتم من خلالها إنتاج المعنى، حيث لا يُنظر إلى النص باعتباره حاملًا لمعنى جاهز، بل بوصفه فضاءً تأويليًا مفتوحًا على احتمالات متعددة يمكن للقارئ أن يستكشفها بطرق مختلفة.

ج- فولفغانغ إيزر وملء الفجوات: القراءة بوصفها عملية تفاعلية بين القارئ والنص: النصوص الأدبية ليست كيانًا مغلقًا يحمل معنى جاهزًا ومكتملًا، بل هي بناء ديناميكي يحتوي على "فجوات نصية" أو مساحات فارغة يجب على القارئ ملؤها أثناء القراءة «إن الفجوات –الانساق الأساسي بين النص والقارئ- هي التي تسبب التواصل في عملية القراءة، فالافتقار الى موقف مشترك وإطار مرجعي مشترك يماثلان اللا- شيء، وهو الذي يسبب التفاعل بين الأشخاص، عن االانساق واللا – شيء هما شكلان مختلفان من أشكال الفراغات اللامحدودة والتكوينية التي تشكل أساس عمليات التفاعل برمتها»[17].

لا يكون النص الأدبي مكتملا بذاته، بل يترك مساحات غير واضحة، مثل الأحداث غير المُفسَّرة، والشخصيات الغامضة، والنهايات المفتوحة، وهذا ما يدفع القارئ إلى استنتاج الروابط والمعاني وفقا على خبراته الخاصة. وبهذا، يصبح القارئ شريكًا أساسيًا في إنتاج الدلالة، حيث تتطلب كل قراءة للنص ربط العناصر الظاهرة والغامضة فيه، مما يُضفي على القراءة طابعًا إبداعيًا.

يركز "ايزر" على القراءة باعتبارها فعالية جوهرية لتكوين المعنى، تشمل مجموعة من العمليات المتكاملة مثل «الاختيار، والتنظيم، والحدس، والاستباق، وصياغة وتعديل التوقعات»[18]. يشبّه "إيزر" هذه العملية بمجموعتين من الأشخاص تنظران إلى السماء ليلاً؛ حيث ترى إحداهما صورة الدب الأكبر، بينما ترى الأخرى الدب الأصغر، رغم أنهما تنظران إلى النجوم نفسها. «تظل النجوم في النص الأدبي، ثابتة، بينما تتباين الروابط التي تصل بينها، مما يشير ضمنًا إلى أن النص الكامن يتمتع بغنى يتجاوز أي تأويل فردي محدد»[19]. أي أن القارئ يعيد تشكيل المعنى وفقًا لزاويته الخاصة، مما يجعل كل قراءة تجربة تأويلية جديدة.

من جهة أخرى، يضع كل نص في اعتباره قارئًا ضمنيًا، غير أن القارئ الفعلي قد يختلف عن هذا القارئ المفترض، مما يؤدي إلى تعدد التفسيرات؛ فالنص نفسه يفترض قارئًا ضمنيًا يفهمه وفقًا لبنيته الداخلية، غير أن القارئ الفعلي قد لا يتطابق معه، مما يفتح المجال أمام تأويلات متنوعة. فالنص لا يُقرأ بالطريقة نفسها من قِبل الجميع، بل يختلف فهمه بناءً على خبرات القرّاء وتوقعاتهم

كيف يقرأ القارئ النص وفقًا لنظرية إيزر؟ يؤكد "ايزر" أن عملية القراءة تمر بعدة مراحل، حيث لا يتلقى القارئ النص بشكل كامل دفعة واحدة، بل يتفاعل معه بشكل تدريجي، مما يدفعه إلى طرح الفرضيات، وإعادة صياغة التوقعات، وملء الفراغات التي يتركها النص.

***التفاعل مع الفجوات النصية:** يحتوي كل نص على ثغرات مقصودة تدفع القارئ إلى البحث عن الروابط بين الأحداث، مما يجعله مشاركًا فاعلًا في إنتاج المعنى.[20]

* **إعادة تشكيل المعنى:** خلال القراءة، يعمل القارئ على إكمال المعلومات الناقصة وفقًا لخلفياته الثقافية وتجاربه الشخصية، مما يجعله يضفي على النص دلالات جديدة قد لا تكون متضمنة بوضوح في بنيته الأصلية.

* **التأويل المتجدد:** لا توجد قراءة نهائية أو ثابتة للنص، بل يمكن أن تختلف التفسيرات بين القرّاء أو حتى لدى القارئ الواحد عند إعادة قراءة النص في أزمنة مختلفة.

مثال: يُعدّ ملء الفجوات النصية عنصرًا جوهريا في رواية "الغريب لألبير كامو"، حيث تتجلى هذه الفجوات في شخصية البطل "ميرسو"، الذي يتسم بالغموض، فلا يقدم النص تفسيرًا واضحًا لدوافعه أو مشاعره، مما يفتح المجال أمام القارئ لتأويل شخصيته وفقًا لخلفياته الفكرية، فبينما يراه البعض تجسيدًا للعبثية وعدم الاكتراث، يفسره آخرون كضحية لظروفه الاجتماعية والسياسية.

علاوة على ذلك، فإن تأويل النص قد تطور بمرور الزمن؛ فخلال النصف الأول من القرن العشرين، فُسرت الرواية غالبًا بوصفها عملًا يعكس فلسفة العدم والاغتراب الوجودي، فيما بدأ النقاد لاحقًا—خصوصًا في السياقات ما

بعد الكولونيالية—بإعادة قراءتها في ضوء قضايا الاستعمار والهوية الجزائرية، حيث رأوا أن محاكمة "ميرسو" لم تكن فقط بسبب جريمته، بل لأنه فرنسي مستعمر يعيش في مجتمع جزائري خاضع للسلطة الفرنسية.

يبرز هذا التحول في التأويلات كيف أن النص الواحد قد ينتج دلالات متعددة تبعًا لأفق توقعات القارئ وسياقه التاريخي والثقافي، مما يعزز تصور "ايزر" لدور القارئ في انتاج المعنى من خلال ملء الفجوات النصية.

رغم أن "ايزر" يمنح القارئ دورًا محوريًا في إنتاج المعنى، فإنه لا يرى أن التأويل غير محدود؛ إذ يؤكد أن القارئ يجب أن يستند إلى معطيات النص في عملية التأويل، بحيث لا يصبح مجرد إسقاط ذاتي غير مبرر. وبالتالي، هناك تفاعل مستمر بين حرية القارئ وحدود النص، فلا يمكن لأي تأويل أن يكون مشروعًا ما لم يستند إلى بنيات النص ومعطياته اللغوية والسردية.

ح-هانز روبرت ياوس وأفق التوقعات: القراءة بوصفها تجربة تاريخية متغيرة: يرى "ياوس" أن القارئ لا يتعامل مع النص بمعزل عن تجربته الثقافية والمعرفية، بل يتفاعل معه وفقًا لما يُعرف بـ "أفق التوقعات"، أي الإطار الفكري الذي يوجه عملية التلقي والتأويل. وبهذا، يصبح المعنى غير ثابت، بل متغيرًا عبر الزمن تبعًا للتحولات الثقافية والاجتماعية والتاريخية. فالنص الذي كان يُقرأ بطريقة معينة في عصرٍ ما، قد يُعاد تأويله في سياقٍ آخر وفقًا لتغير المعايير الجمالية والفكرية السائدة. لذا يتحقق التفاعل «من خلال العلاقة بين النص الحالي والنصوص التي سبقته، حيث تسهم هذه العلاقة في تجديد الأفق وتعديله عبر سلسلة من عمليات التلقي»[21].

كيف يقرأ القارئ النص وفقًا لياوس؟ يؤكد "ياوس" أن القراءة ليست عملية محايدة، بل تتأثر بالسياق الثقافي للمتلقي ومعرفته السابقة بالأنواع الأدبية والتقاليد النقدية. يدخل القراء إلى النص بتوقعات مسبقة حول بنيته ومضمونه، وعندما يتعارض النص مع هذه التوقعات، تحدث لحظة المفاجأة الأدبية، مما يحوّل القراءة إلى تجربة ديناميكية وتفاعلية.

يعتمد تلقي النصوص عند "ياوس" على عدة عوامل أساسية[22]:

- **أفق التوقعات باعتباره إطارا للفهم** :يتفاعل القارئ مع النص من خلال منظور فكري وثقافي معين، فإذا جاء النص متوافقًا مع توقعاته، فإنه يعزز معارفه السابقة. أما إذا تعارض معها، فإنه يدفعه إلى إعادة النظر في تصوراته، مما يثري تجربته النقدية. وهنا تكمن قيمة العمل الأدبي، إذ أن قدرته على تجاوز أفق التوقعات وإحداث صدمة أو مفاجأة للقارئ تعزز من قيمته الفنية والثقافية.فـ « الطبيعة الفنية لأي عمل أدبي تتحدد من خلال الفجوة بين أفق التوقعات والمتن الأدبي، ومدى اعتيادية التجارب الجمالية السابقة، والتغيرات التي يفرضها تلقي الأعمال الجديدة»[23]. ومع ذلك، يؤكد "ياوس" أن هذا الأفق ليس ثابتًا، بل يتغير عبر الزمن، مما قد يجعل بعض الأعمال التي أُسيء فهمها في زمنها تُصبح ذات قيمة عالية في المستقبل.
- **التاريخية الأدبية وتأثير الزمن** :يرى "ياوس" أن تلقي النصوص يتغير عبر العصور؛ فبعض الأعمال التي كانت تُعد غير مفهومة أو هامشية في زمنها قد تتحول إلى كلاسيكيات في فترات لاحقة، نتيجة تغيّر الأفق الثقافي للقراء[24].
- **التفاعل بين القارئ والنص** :لا يكتفي القارئ بتلقي النص بشكل سلبي، بل يعيد تشكيله وفقًا لخبرته القرائية. فكلما كان النص أكثر تعقيدًا وتجاوزًا للأفق المتوقع، زادت تجربة القارئ تحفيزًا وتأثيرًا.

تجسّد العديد من الأعمال الأدبية مفهوم أفق التوقعات كما يطرحه "ياوس"، حيث تتغير تأويلاتها عبر الزمن تبعًا للسياقات التاريخية والثقافية:

-**رواية "البؤساء" لفيكتور هوغو** :يقرأها البعض باعتبارها نقدًا للظلم الاجتماعي، بينما قد يراها آخرون عملاً إنسانيًا يتمحور حول المغفرة والتضحية.

-**رواية "الغريب" لألبير كامو** :حين صدرت الرواية في منتصف القرن العشرين، فهمها النقاد والقراء ضمن إطار الفلسفة الوجودية والعبثية. لكن لاحقًا، بدأ بعض الباحثين يقرؤونها من منظور ما بعد استعماري، معتبرين أن محاكمة "ميرسو" تعكس الديناميات الاستعمارية بين فرنسا والجزائر.

-**تحولات الذائقة الأدبية** :في القرن التاسع عشر، كان القرّاء يتوقعون من الرواية أن تكون واقعية، لكن في القرن العشرين، أصبحت الرواية أكثر تجريبية، مما أدى إلى تغير أفق التوقعات لدى القرّاء.

إذن، يمثل أفق التوقعات أداة قوية لفهم العلاقة بين القارئ والنص والتاريخ الأدبي، إذ يكشف كيف أن الأدب ليس مجرد مجموعة من النصوص، بل هو تجربة حية تتفاعل مع القراء وتتحول عبر الزمن. فهو بمثابة "خريطة ذهنية" يحملها القارئ معه عند قراءة عمل أدبي، وتتكون هذه الخريطة من مجموعة من المعارف والتوقعات التي تؤثر على طريقة فهمه للنصوص الأدبية.

ووفقًا لـ "ياوس"، فإن القيمة الجمالية لأي عمل أدبي لا تكمن فقط في قدرته على تلبية أفق توقعات القارئ، بل في تجاوزه لها، وإثارة الدهشة، وإعادة تشكيل الأفق النقدي العام. وبالتالي، فإن الأعمال التي تُحدث "السلبية الجمالية"_أي التي تصدم القارئ وتدفعه إلى إعادة النظر في معاييره الجمالية_، غالبًا ما تكون الأكثر تأثيرًا في تاريخ الأدب. وهذا ما يفسر كيف أن بعض الأعمال التي قوبلت بالرفض في زمانها، تحوّلت لاحقًا إلى روائع أدبية بعد أن تغيرت الذائقة النقدية للقراء.

خ- ستانلي فيش والمجتمعات التفسيرية: القراءة نتاج للمنظومة الثقافية والاجتماعية: على عكس المقاربات التي تركز على القارئ الفرد بوصفه المنتج الأساسي للمعنى، يقدم "ستانلي فيش" رؤية مختلفة، إذ يعتبر أن عملية القراءة والتأويل ليست فعلًا فرديًا خالصًا، بل تتشكل داخل ما يُعرف بـ "المجتمعات التفسيرية. ووفقًا لهذا المنظور، لا ينبثق المعنى من النص وحده، ولا يُحدد بشكل مطلق من قبل القارئ الفرد، بل يتشكل داخل الجماعات الفكرية والثقافية التي ينتمي إليها القارئ، والتي تشترك في أنماط قرائية محددة وقواعد تفسيرية متفق عليها ضمنيًا.

وبالتالي فإن المعنى عنده «يتم انتاجه بواسطة القارئ وليس اكتشافه. ولذلك يميز فيش بدقة بين النص ككيان ثابت والنص كمعنى ثابت، فهو يقبل الأولى ولكنه يتحفظ على الثانية. ومن ثم فإن استجابة القارئ ليست للمعنى، بل هي المعنى ذاته، أو على الأقل هي الوسيط الذي من خلاله ينشأ ما أريد أن اسميه المعنى، ومن ثم فحين نتجاهله أو نسقطه من الحساب فإننا نخاطر - أو هكذا أتصور - بعدم التواصل مع الكثير مما يجري حولنا»[25]

كيف يقرأ القارئ النص وفقًا لفيش؟ يرى "فيش" أن القراءة ليست مجرد تفاعل فردي بين القارئ والنص، بل هي عملية مؤطّرة داخل سياقات ثقافية واجتماعية تفرض معايير معينة للفهم. فالقراء ينتمون إلى مجتمعات تفسيرية

توفر لهم الأدوات والتقاليد القرائية التي يعتمدون عليها عند تأويل النصوص. وبهذا، يختلف تفسير النص الواحد باختلاف هذه المجتمعات.

يعتمد التأويل عند "فيش" على عدة عوامل أساسية:

* **التأويل كعملية اجتماعية:** لا يُبنى المعنى بناءً على رغبة القارئ الفرد فقط، بل يتحدد من خلال الأعراف القرائية للجماعة التي ينتمي إليها.

* **التفسير ليس ثابتًا:** بما الجماعات التفسيرية نفسها تتغير عبر الزمن، فإن معاني النصوص تتغير تبعا لها. فالنص الذي كان يُفسّر وفقًا لمنظور أخلاقي صارم في الماضي، قد يُقرأ اليوم من منظور نقدي حداثي أو تفكيكي.

* **دور الجماعة في ضبط التأويل:** يُنتج كل مجتمع تفسيري معانٍ مختلفة، غير أنه يفرض أيضًا قيودًا على التأويلات غير المقبولة داخل منظومته الفكرية، مما يمنع الفوضى التأويلية المطلقة.

إذًا، لا يقرأ القارئ النص من فراغ، بل يخضع تأويله إلى الأطر الفكرية والاجتماعية التي توجه فهمه. فمثلًا:

- يمكن لجماعة ثقافية معينة أن تفسر رواية "دون كيخوته لـميغيل دي ثيربانتس" على أنها نقد للمثالية الزائفة، بينما قد تراها جماعة أخرى كوميديا ساخرة تعكس واقعًا اجتماعيًا معينًا.

- يمكن لجماعة دينية أن تفسر قصيدة صوفية على أنها تجربة روحانية، في حين أن باحثًا أدبيًا قد يراها كتجربة لغوية وفنية مجردة، بينما قد يقرأها مؤرخ ثقافي ضمن سياق التصوف الاجتماعي.

- تأويل نص أدبي وفقًا للخلفية الفكرية للقارئ: قد يقرأ شخص متدين نصًا أدبيًا بروح دينية، فيبحث عن الرموز الأخلاقية والروحية فيه، بينما قد يقرأه شخص حداثي من منظور فلسفي أو نفسي.

بهذا المعنى، لا يكون تأويل النص عملية ذاتية مطلقة، بل هو نتاج لخبرات القارئ الجماعية والتاريخية. فالقارئ لا يوجد في عزلة، بل ينتمي إلى مجتمع تأويلي يحدد كيفية قراءته للنصوص، وهو ما يسميه فيش "التفسير التفاعلي". وبهذا، تصبح القراءة فعلًا اجتماعيًا بامتياز، يتشكل وفقًا للأطر الثقافية والمعرفية التي ينتمي إليها القارئ «وفي تقديره أن الجماعة المفسرة هي المنقذ للنظرية من فوضى التفسيرات، حيث يسلم بأن هناك حقائق لغوية لا تخلو من المعنى، ولكن تفسير هذا المعنى وشرحه ليس في طاقة النحو والتركيب، وإنما في طاقة القارئ الذي يمنحه النص. وهكذا أبقيت على التمييز بين النص والتفسير، وأكد بهذا سلامة النص وموضوعيته»[26]

ومع ذلك، لا يعني هذا أن المعاني محددة مسبقًا أو ثابتة، بل إنها تتغير بتغير الجماعات التفسيرية نفسها، مما يجعل عملية التأويل ديناميكية ومتغيرة عبر الزمن.

الخاتمة: يبرز كتاب "القارئ في النص: مقالات في الجمهور والتأويل" التحولات العميقة التي شهدتها الدراسات الأدبية الحديثة، خاصة فيما يتعلق بدور القارئ في إنتاج المعنى. فلم يعد النص يُنظر إليه ككيان مغلق يحمل دلالة ثابتة، بل أصبح فضاءً تأويليًا مفتوحًا، حيث يتشكل معناه من خلال التفاعل المستمر بين القارئ وبنية النص. تناول البحث مجموعة من المقاربات النقدية التي أعادت الاعتبار لدور القارئ، بدءًا من التأويلية، التي ترى القراءة حوارًا مستمرًا مع النص، مرورًا بالتفكيكية، التي تفكك مركزية المعنى، وصولًا إلى نظرية التلقي، التي تؤكد أن القارئ ليس مجرد متلقٍ سلبي، بل شريك فاعل في تشكيل الدلالة.

توصلت الدراسة على مجموعة من النتائج المتعلقة بتفاعل القارئ مع النص، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- لم يعد المعنى ثابتًا داخل النص، بل أصبح متجددًا عبر القراءات المختلفة، حيث يساهم القارئ في تشكيله وفقًا لخلفياته الفكرية والثقافية.

- تتأثر عملية القراءة بعوامل متعددة، أبرزها الخلفية الثقافية والمعرفية للقارئ، والسياق التاريخي والاجتماعي، والبنية اللغوية للنص، مما يؤدي إلى تنوع التأويلات.

- تفاوت حرية القارئ :بينما منحت بعض المقاربات، مثل التفكيكية والتلقي، القارئ حرية واسعة في التأويل، حاولت مقاربات أخرى، مثل التأويلية، وضع قيود منهجية تحافظ على تماسك المعنى وتمنع الفوضى التأويلية.

- أفق التوقعات والتلقي التاريخي :يتغير فهم النصوص عبر الزمن وفقًا للتحولات الثقافية والمجتمعية، مما يعني أن القراءة ليست عملية ثابتة، بل تاريخية تتجدد مع كل جيل من القراء.

- إجمالًا، يمثل كتاب "القارئ في النص" إضافة نوعية للدراسات الأدبية، إذ يعيد صياغة العلاقة بين النص والقارئ، باعتبارها علاقة جدلية تقوم على ديناميات التفاعل الأدبي، فلا يخضع أحد الطرفين لسلطة مطلقة، بل تتشكل المعاني في فضاء مشترك بين النص وبُنى القراءة المختلفة.

هوامش:

[1] سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، 2007، القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل، تر حسن ناظم، علي حاكم صالح، ط1، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة.

[2] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص 11،12.

[3] سميرة حدادي، 2017، جماليات التلقي-افتراضات ياوس وايزر -، مجلة الآداب، قسنطينة، مج 17، ع1، ص 124.

[4] ينظر، المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص30،31.

[5] عبد العزيز حمودة، 1998، المرايا المحدبة، من البنيوية الى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع 232، ص 93.

[6] أمبرتو ايكو، 2001، الأثر المفتوح، تر عبد الرحمن بوعلي، ط2، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 17.

[7] ينظر، المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص55-62.

[8] روبرت سي هول، 1992، نظرية الاستقبال مقدمة نظرية، تر رعد عبد الجليل جواد، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ص 55.

[9] ينظر، أمينة بن عودة، (2008)، غادمير والممارسة التأويلية، معسكر، مجلة المواقف، ع1، مج3، ص 289-273.

[10] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص45.

[11] محمد عناني،2013، معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ط3، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ص 15.

[12] ينظر، عبد الرزاق علا، (2019)، فلسفة القراءة التفكيكية: من التأويل إلى انحراف المعنى، مجلة دراسات معاصرة، ع1، مج3، ص 305،306.

[13] Friedrich Nietzsche,1887 , On the Genealogy of Morals, tr : Walter Kaufman, R. J. Hollingdale, New York, copyright by random house, p 78-77.

[14] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص33.

[15] رولان بارث، 2015، هسهسة اللغة، تر منذر عياشي، ط1، دمشق، دار نينوى، ص 83.

[16] سامية بقاح، (2015)، (Z/S) (س/ز) لرولان بارث قراءة في كتاب، تلمسان، ع1، مجلة الآداب واللغات، ص 208. 190-217.

[17] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص133.

[18] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص 38.

[19] Wolfgang Iser, 1978, The Implied Reader, ed 1, United States, The Johns Hopkins University Press.

[20] ينظر، فولفغانغ إيزر، فعل القراءة ونظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر جميد لحميداني والجلالي الكدية، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، ص 12.

[21] Jauss, Hans Robert, 1978, Pour une asthétique de la réception, tr Claude Maillard, paris, édition Gallimard, p15

[22] ناظم عودة خضر، 1997، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ص 144، 145.

[23] Hans Robert Jauss (1970), Literary History as à Challenge to Literary Theory, New Literary History, United States, Vol. 2, No. 1, p15.

[24] ينظر، بخوش علي، تأثير جمالية التلقي الألمانية عفي النقد العربي، 1.3.2025،
https://down.ketabpedia.com/files/bkb/bkb-ar05382-ketabpedia.com.pdf

[25] ستانلي فيش، 2004، هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، تر: أحمد الشيمي، مرا: محمد بريري، القاهرة، المشروع القومي للترجمة، ص 41.

[26] المرجع السابق، سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، ص 46.

قائمة المصادر والمراجع:

-بالعربية:

1- أمبرتو ايكو، 2001، الأثر المفتوح، تر عبد الرحمن بوعلي، ط2، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع.

2- روبرت سي هول، 1992، نظرية الاستقبال مقدمة نظرية، تر رعد عبد الجليل جواد، ط1، سورية، دار الحوار للنشر والتوزيع.

3- رولان بارث، 2015، هسهسة اللغة، تر منذر عياشي، ط1، دمشق، دار نينوى.

4- ستانلي فيش، 2004، هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، تر: أحمد الشيمي، مرا: محمد بريري، القاهرة، المشروع القومي للترجمة.

5- سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، 2007، القارئ في النص مقالات في الجمهور والتأويل، تر حسن ناظم، علي حاكم صالح، ط1، لبنان، دار الكتاب الجديدة المتحدة.

6- فولفغانغ إيزر، فعل القراءة ونظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر جميد لحميداني والجلالي الكدية، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة.

7- محمد عناني،2013، معجم المصطلحات الأدبية الحديثة، ط3، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان.

8- ناظم عودة خضر، 1997، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع.

-المجلات:

1- أمينة بن عودة، (2008)، غادمير والممارسة التأويلية، معسكر، مجلة المواقف، ع1، مج3، ص 289-273.

2- سامية بقاح، (2015)، (س/ز) لرولان بارث قراءة في كتاب، تلمسان، ع1، مجلة الآداب واللغات، ص 190-217.
3- سميرة حدادي، 2017، جماليات التلقي-افتراضات ياوس-، مجلة الآداب، قسنطينة، مج 17، ع1، ص. 121 -146.
4- عبد الرزاق علا، (2019)، فلسفة القراءة التفكيكية: من التأويل إلى انحراف المعنى، مجلة دراسات معاصرة، ع1، مج3، ص 303-308.
5- عبد العزيز حمودة، 1998، المرايا المحدبة، من البنيوية الى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع 232.

-الأجنبية:

1- Friedrich Nietzsche,1887 , On the Genealogy of Morals, tr Walter Kaufman, R. J. Hollingdale, New York, copyright by random house.
2- Jauss, Hans Robert, 1978, Pour une asthétique de la réception, tr Claude Maillard, paris, édition Gallimard
3- Wolfgang Iser, 1978, The Implied Reader, ed 1, United States, The Johns Hopkins University Press.
4- Hans Robert Jauss (1970), Literary History as à Challenge to Literary Theory, New Literary History, United States, Vol. 2, No. 1, p 7 – 37.

-المواقع الالكترونية:

1- علي بخوش، تأثير جمالية التلقي الألمانية عفي النقد العربي، 1.3.2025،
https://down.ketabpedia.com/files/bkb/bkb-ar05382-ketabpedia.com.pdf